

حمزة والحب والثورة

بقلم يحيى خضبة

يمنح أفكاره ودوافعه واسلوبه نفس اصالة اهدافه ، وان يعمق ارتباطها بالواقع الذي يصارعه .

لقد وعى حمزة حقيقة ان الواقع متغير ولا يمكنه ان يركن الى الجمود ، وهو يعرف ان تغير الواقع رهن بعمل الناس المتكاثرات المتراكم ابدا ، ورهن بوغي الناس بمصالحهم وقوتهم وفدريتهم على التجمع . وهو يعرف ان وعيه النظري بهذا القانون العلمي - قانون التغير الاجتماعي المطلق المرتبط بوغي الناس وعملهم - يعرف ان هذا الوعي لا يمكن ان يكتمل ويتحقق ما لم يرتبط بواقع هؤلاء الناس الذي عاشوه والذي يعيشونه ، وبهؤلاء الناس انفسهم وبصورة مباشرة وعضوية . ولكنه في الحقيقة ظل مكتفيا بالسطح الظاهر من هذا الواقع الانساني، على المستويين الاجتماعي والفردى . ان عمق المجتمع - وعمق افراده ايضا - انما يكمنان في تاريخهما . ولا بد من القوص الى هذا العمق حتى يمكن اكتشاف الجزء الاكبر من الحقيقة ، حقيقة التكوين الفكري والنفسى لهؤلاء الناس الذين سعى حمزة الى ان يعلمهم وان يتعلم منهم .

حقا لقد تحدث حمزة حديثا رائعا عن حادثة تاريخية بعينها ، عن مظاهرة ٦ مارس ١٩٤٦ الدموية في الاسكندرية ، ولكنه لم يتحدث سوى عن المعنى « الشعري » الذي لا شك في واقعيته لهذه الحادثة ، تحدث عن قدرة شعبنا على القتال وخوض المعارك ، ولكنه ابدا لم يتحدث عن المعنى التاريخي المحدد لتلك الحادثة او للحوادث المشابهة ، وهو ان قسما معينا من الشعب ، القسم الذي يسمونه « الفوجاء » قد اكتشف ان العنف هو الطريق الوحيد للخلاص من المحتل . وقد اكتشف حمزة شيئا قريبا من هذا المعنى ، ولكنه حينما مضى يستعيد ذكرى ذلك اليوم الدامي ، كان مشغولا باقناع حبيبه بان الشعب قادر على القتال ، حينما اصطدم بفكرتها المستعارة من ثقافتها القريبة التقليدية عن عجز الشعب المصري عن القتال وعن طبيعته المسالمة . ولكن حمزة ما كان ليهتم بانبات رايه في هذه القضية - او لما كانت تشغله هذه القضية حتى يصبح من اللازم عليه ان يكون له رأي فيها على الاطلاق - لو لم يكن قد احترق اللجوء الى شقة فاخرة مثل شقة بدير الحامي الثري ، ولو لم يكن قد حيس نفسه ونضاله داخل جدران المدينة التي تزيف الكثير من اصالة الشعب نفسه وتمنحه - بمدارسها واجهزة اعلامها المزودة بالكثير من الثقافات المستعارة المعادية للشعب - فكرة مغلوطة عن نفسه وعن قدراته . ما كان حمزة ليشفل نفسه بانبات قضية قدرة الشعب المصري على القتال ، لو انه كان يتحدث الى الشعب المصري نفسه في المكان الذي تعجز فيه المدينة بثقافتها المستعارة من العدو الذي ترغب في الخلاص منه ، تعجز عن تزييف فكرة الشعب عن نفسه واحساسه بذاته ، لو ان حمزة كان يتحدث الى الفلاحين مثلا ، او الى هؤلاء الشبان الذين احرقوا بملابسهم الممزقة والمبللة بالبنترول « كشك » الجنود الانجليز في مظاهرة ٦ مارس في الاسكندرية ، دون ان يبحثوا عما اذا كانت لديهم القدرة على القتال او يعجزون عنه . ولقد اكتفى حمزة بان يكتشف بساطة العلم « اسماعيل ابو دومة » وصدقه وكرمه وقدرته غير المحدودة على العمل والطاء والحب ، وكان هذا الاكتشاف من جانب حمزة رائعا في انسانيته ، وان ظل غارقا في السذاجة الى حد بعيد . لقد بدأ الشعب من خلال تجارب حمزة وذكرياته ، وكأنه جموع من الكرماء

ليس من السهل ان نغتر على بطل في عمل روائي في أدبنا الحديث كله ، استطاع ان يتكلم عن نفسه - شخصيته وأفكاره ومواقفه - يمثل هذه الوفرة والطلاقة والوضوح التي تبدو في حديث « حمزة » بطل « قصة حب » ليوسف ادريس عن نفسه ، بينما هو يسعى الى تأكيد ثوبان فرديته : مطامحه الشخصية وأحلامه الخاصة « في مطالب الشعب العامة وأحلام أمته . ونحن قد نسرع الى الحكم على حمزة بانه شخص نرجسي مصاب بعقدة الاستعراض ، ولكن خطأ هذا الحكم لن يقل عن خطأ الحكم عليه بانه شخص مفرور متصل على الآخرين ، يرى ان واجب الآخرين الوحيد هو ان يستمروا في الانصات اليه دون مناقشة ، بينما يكون هو صاحب الحق الوحيد في تلقين التعاليم من مركز الفاهم لكل شيء المحيط بكل شيء علما . اننا ازاء حمزة - طالما قد أصر على ان يتحدث عن نفسه ليحدد معالم شخصيته بهذه الدقة - لا يسعنا الا ان ننظر اليه من خلال نفس الزاوية التي نظر من خلالها الى نفسه . وليس هذا استسلاما من جانبنا لرؤية المؤلف ، كما انه ليس خضوعا « لتعاليم ! » حمزة ، وانما هو بحث حقيقي عن معناه ، باعتباره انسانا واثرا ، من خلال ذلك التقابل - لا التناقض ولا التطابق - الذي لم يكن هناك مفر من وقوعه بين كلمات حمزة وبين مواقفه . فان حمزة الذي لم يشغل نفسه بالبحث عن « الحقيقة » - على المستوى الفلسفي المجرى ولا على المستوى الشخصي - كان مطالبا على الدوام بان يبين حقيقته . انه لم يشغل نفسه بالبحث عن حقيقة مطلقة ما دام يعرف ان النقص لا يكمن في عالم المطلقات ، وانما يتطور النقص معالم الواقع المادي المحدد بظروفه وملابساته . كما ان حمزة الذي كان يعرف ان هذا النقص الواقعي لم يكن قدرا لا يمكن التخلص منه - بدليل ان محور حياته كان هو النضال ضد هذا النقص - فانه كان يعرف ايضا ان التخلص من هذا النقص لن يكون وصولا الى نوع من « الكمال » ، وانما سيكون نضالا دائما ضد النقص القائمة وضد كل ما يجد من نقائص لم تتكشف ، او لم تحدث بعد . كذلك فان حمزة ، الذي يطالعنا منذ بداية الرواية مزودا بكل أدوات كفاحه ، الافكار في دماغه ورشاش البرتا بين يديه ، كما لو كان « بطلا جاهزا » مستعدا للقيام بالدور الذي لا ريب أعده له المؤلف من قبل - أقول ان حمزة ، هذا « البطل الجاهز » لم يترفع عن أن يعدل « أسلوبه » في التفكير - او على الأقل هذا هو ما يقرره بنفسه - حينما نزع عن نفسه آخر اثار فرديته بوقوعه في الحب وتزايد امتزاجه مع الشعب - بالصورة التي تبدو بها الشعب امام ناظري حمزة وناظري خالقه : يوسف ادريس .

ولكن حمزة ، بكل ما كان مزودا به من أفكار وأسلحة ، ورغم حبه الجديد ، لم يكن يملك أن يغير « منهجه » الفكري ، أي ان تتحول أفكاره وأسلحته ووجه حقا الى روابط حقيقية تشده ، لا الى ملامح شعبه الخارجية التي لا شك في طبيعتها ، وانما الى روح هذا الشعب حيث تراكمت خبرته وحكمته لا تكاد تصل اليهما يدان . هكذا كان حمزة ثوريا اصيلا باصراره على القتال ، بأفكاره وسلاحه ، عقله ويده ، من أجل تغيير الواقع بما يحقق مصلحة شعبه وحرية . ولكنه - ربما رغما عنه وعن منهجه العلمي - ظل ثوريا ناقصا حينما لم يستطع ان

المسيوطي الايدي ، الشجعان الاقوياء المردة ، وكان عصورا من الاضطهاد والافكار والتجهيل والارهاب الوحشي لم تترك على روح هذا الشعب وجسمه وعقله بصماتها المشوهة الكريهة - رغم ذكريات حمزة عن عزبة عمال الدريسة واحوالهم المتدهورة التي يصفها حمزة في ذكرياته ايضا بطريقة شاعرية - الامر الذي يجعل تفوق قاهري هذا الشعب وسيطرتهم عليه شيئا غير مفهوم ولا تبرير له .. حتى من وجهة نظر حمزة نفسه .

لماذا استطاع المستعمر ان يقهر الشعب اذا كان الشعب يمثل هذه البطولة والشهامة والكرم ؟ الا انه كان يفتقر الى التنظيم فقط ؟ ام لان اكثر فئات الشعب قدرة على التجمع - وبالتالي على خوض نوع من القتال المنظم وهم العمال والافندية - كانت قد ارتبطت مصالحهم بالدينة التي فضل حمزة ان يهرب الى احد شققها الفاخرة ، حتى اذا طرده المدينة - ويدير هو مندوبها - فضل ان يلجا الى مقابر المدينة . ولان تلك الفئة نفسها كانت قد تسربت اليها امثال تلك التصورات عن عجز الشعب المصري عن القتال بطبيعته المسالمة ، والتي شغل حمزة نفسه بدحضها ، بدلا من اللجوء مباشرة الى من اسدوا الاستعداد الفعلي للقتال من اجل تنظيمهم وخوض المعركة من قلب صفوفهم ؟ .

ان ما يلت نظر حمزة في تاريخ الشعب هو المواقف والافعال . لقد استوقفه في حادثة ٦ مارس فدائية الصبية والشبان الفقراء - الفوغاء - واندفاعهم الشيطاني لمواجهة الموت وبهدف ابادة العدو . ولكنه ايضا لم يغفل عن انسحاب لاسي الجلابيب النظيفة والبديل الايقنة من الميدان ، الذي اصبح ميدانا حقيقيا للقتال والموت وتحويلهم الى مجرد متفرجين . لقد اكتشف حمزة في ذلك اليوم معدن الشعب الحقيقي كما اكتشف انقسامه ، وقرر الانحياز الى جانب « العنف » الذي رأى الفوغاء يمارسونه ، كما رأى الانبيين يتجنّبونه وان كانوا يهللون له ويشغفون بالتفرج عليه . ثم دخل في مناقشة مع استاذ اكاديمي سفسطاني متائق ، وقال حمزة كلاما لم يعد يذكر منه سوى نهاية حديثه : « لن يخرج المحتل الا بالقوة وبالقوة فقط سيتحرر الشعب » ، ولكنه لم يعد يذكر ان القوة انما استخدمها قسم واحد فقط من هذا الشعب » . لقد نسي ذلك الانقسام الغريب في صفوف الشعب امام استخدام القوة في ميدان ٦ مارس المزعج . لقد اكتشف حمزة من خلال موقف محدد قيمة « العنف » ، ولكنه لا يبدو في الرواية حاملا لمسؤولية الثورة بمفهومها الاصيل . فاذا كانت الثورة ضد المحتل لا يمكن ان تنجح الا بالعنف فان العنف لا يمكن ان يستخدمه دون تردد الا اولئك الذين يواجهونه في حياتهم بالفعل ، او اولئك الذين يكشفون قيمته بالوعي الثوري مثلما فعل حمزة .

ومع هذا ، فلا بد من « مد الخطوط الى نهاياتها » كما يقول حمزة نفسه . لقد رأى حمزة في يوم ٦ مارس ، ابناء الشعب في « جموع » كبيرة وهم يمارسون العنف الثوري ، يستخدمون القوة الهوجاء في مواجهة قوة المستعمرين الهوجاء . وكانت قوة الشعب في ذلك اليوم - كما كانت دوما قبل ذلك - غير منظمة . وعرف حمزة كما قال بعد ذلك ان الشعب « محتاج لي ومحتاج لغيري علشان ننظمه وندخل بيه معركة الفاصلة » . ورغم هذا فاننا لم نر حمزة وهو ينظم الشعب . فبالصورة التي رأيناها لا يكون مفهوم تنظيم الشعب عند حمزة سوى اختيار اي مجموعة من الافراد ، يبدون قدرا من الطيبة وحدا ادنى من تحمل المسؤولية - واحيانا لا يبدون حتى هذا الحد الاثنى كما رأينا في سعد الذي كان قد اسرع بعد حريق ٢٦ يناير الى التخلي عن النضال والانمجام في حياة منحلة كريمة - لكي يقودهم حمزة من اجل اطلاق الرصاص على بعض جنود المحتل ، او تفجير قطعة من الدناميت او قطعتين ، حتى يتم القبض عليهم او يقتلوا . بهذا الشكل لا يكون انتصار الكفاح المسلح اكثر من امنية شريفة تطوف بصدر حمزة وزملائه ، اما سلوكهم فلم يكن سوى مغامرة لا تؤدي الى نتيجة . ان رؤية حمزة التي تكشفت في ميدان ٦ مارس الدموي لم تكن تؤدي الى مثل هذا

السلوك وهذا التصور عن تنظيم الشعب لخوض الكفاح المسلح وممارسة العنف ضد المحتل . ان تنظيم الشعب لا يتم الا من خلال وجود الثوريين المسلحين بالوعي العلمي وبروح القتال حيثما توجد تجمعات الشعب الكبيرة - التي يمارس المحتل ضدها أكبر قدر من القهر والعنف - من اجل توعية هذه الجموع بمصالحها وتنظيم قدرتها الموجودة فعلا على القتال ، تنظيم عنفها هي الخاص ، من اجل تحويل كل غضب الى سخط ، وكل سخط الى تمرد ، وكل تمرد الى انتفاضة ، وكل انتفاضة الى ثورة . الشعب المقهور الذي تم افقاره وتجهيله غاضب ابدا متفجر بالرغبة في العنف على الدوام . وعلى الثوري ان يزود هذا الغضب بالوعي ، وتحويل الرغبة في العنف التي قد تنفث في عراك شخص مع احد الجيران او زملاء - كما يقول فرائز فانون - الى روح للقتال لا تستقر الا بعد الانتصار النهائي على العدو المحتل ، ليس في ميدان الحرب فقط ، وانما في ميدان الاقتصاد والفكر والاخلاق ايضا . ولا يمكن لهذه المهمة ان يحققها الثوري ما لم يكن قد مزج وعيه النظري بقوانين التطور والصراع الاجتماعية وبقوانين العمليات العقلية والنفسية لدى الافراد ، وبقوانين الاقتصاد السياسي والتقدم التاريخي ، اقول ان الثوري لا يمكن ان يتجز تلك المهمة ما لم يمزج وعيه النظري بكل تلك القوانين العلمية مع « خبرة » شعبة المتراكمة عبر العصور ، خبرته في القتال والمقاومة لا من اجل الحرية السياسية وحدها ، وانما من اجل التحرر من الخرافة والجهل والتواكل والسلبية والفهولة والسذاجة والفردية والجشع .. وكل ما لم يحسن حمزة ان يكشفه في الناس . لقد اكتسب الناس فسي تاريخهم ومن خلاله لغة وطريقة معينة في التفكير والتعامل ، اكتسبوا حمزة برؤية الجانب « الطيب » منها فحسب ، كما اكتسبوا خبرات معينة في التجمع والتنظيم والاستفادة من ظروفهم الجغرافية والاجتماعية الى اقصى حد ، ولم يحاول حمزة الاستفادة من هذه الخبرات .. ولهذا فقد كانت معرفته بشعبه ناقصة الى حد كبير ، ولهذا لم يكن ليكتب له - في هذه الحالة - النجاح في قيادة معركة هذا الشعب .

ورغم هذا فان حمزة الثوري - سواء بأصالته ام بجوانب القصور فيه - لم يكن ثوريا عاديا . ذلك انه كان قد اخذ على عاتقه مهمة تحقيق ثورة غير عادية . انه يعرف ان المسألة ليست مسألة الانجليز وخدمهم ، وانما هي مسألة الشعب ومستقبله في المائة سنة المقبلة .. « لعد ما العيشة تبقى لو كس » . وهو يستمع الى « مارش العبيد » من موسيقى تشايكوفسكي ، فتتوج امام عينيه الاشياء ، وتتراقص الظلمة ، تتخفق الحجره بانات كالاشباح ، ولكنه يستمع ايضا الى الموالم الشعبي من زميله العامل سيد ابراهيم ، فيحمل اليه روعة الليل ويشيع الفجر فيه ، وينادي العيون فيشعر بالنوم وقد تسلل منها « وينوب البورد وبهاجر الظلام .. ويرى بالعين النور ويملأها دفة ومرح . » ، ها هو بين العالمين ، عالم معركة القائمة بالفعل - في الجزء الذي حسده لنفسه منها ، وعالم المستقبل الذي يحلم به لشعبه ويقاوم الان من اجل خلق الفرصة لاجياده ، عالم الموسيقى العقلية الخالصة المحملة بشمات وجدان فنان عبقرى انفع بالأم البشرية ، ولكن البشرية لا تستطيع كلها ان تستوعب فنه العظيم ، وعالم ذلك الموالم الذي ادعه قوم حمزة انفسهم من خلال عذاباتهم والامهم الفادحة ، وآمالهم الهائلة بالخلاص والتحرر . عرف حمزة انه لكي لا يتمزق بين العالمين ، عالم الان والآن وعالم المستقبل ، عالم الواقع وعالم الامل ، عالم الابداع من خلال التمزق والجوع وعالم تذوق الجمال من خلال الانفعال والتأمل ، عرف حمزة انه لكي لا يصبح جسرا مشدودا بين الصفتين انهار من وسطه فاصح تايكيدا بارزا على انفصالهما بدلا من ان يكون الرابط الواسق بينهما ، ولكي تتوازن داخله مهام الحاضر واحلام المستقبل ، اصالة الواقع وانسانية العذاب والمتعة ، عرف حمزة انه لا بد لكل هذا ان يكون هو نفسه واضحا للآخرين ، وان لم يعرف انه لا بد ان يكون فهمه لتحقيق هذا الانفصال الذي لا بد من رأب صدعه واضحا شديدا

الوضوح للآخرين كذلك ، لا بد لهذا الانفصال والسمي من أجل تحقيق الربط بين اطرافه أن يكون واضحا لسيد ابراهيم الذي غنى الموالم لحزمة ولم يشعر معه بما احسه حمزة ، وواضحا لبدير وفوزية اللذين استمع معهما الى موسيقى تشايكوفسكي ولم يعانوا معه ما عاناه .

ولقد عرف حمزة أنه وهو الثوري العفاندي ، الذي ركبت شخصيته من خلال وعيه بتناقض واقفه وعبويه وتناقضاته ، عرف كم هو مختلف مع هذا الواقع ومتناقض معه في كل شيء . ان الاشياء تكتسب عنده معنى ومضمونا وجوهاً جديداً ، فهو عملي ومؤمن بالعلم ، وبالتفسير المطلق وبقدرة الناس على ان يحدوا التغيير ويأمنون بتغييرها هم أيضاً ، وبأنه مهما اختلفت الدوافع فالهم هو الهدف طالما ان الهدف هو الذي يطور الدافع ، وبأن الناس خلقوا ليحبوا ويسعدوا ، وبأنهم يحسون الحب مثلما يحسون الخوف والفرح والكراهية ، وبأن الحب الحقيقي علاقة مادية تقتضي زمنا وعشرة وتجربة مادية يمر بها الرجل والمرأة فتصهرهما في بوتقتها ، وبأن تجربة الحب لا تكتمل ابداً ، ولا يمن للحب ان يتجسد ويصبح حقا ما لم يكن هناك ما يقابله عند الطرف الاخر ، ورغم هذا - رغم كل هذه المعرفة - فهو يعرف أيضا انه انسان عادي وليس بطلا ، وانه يعاني من نفس المشاكل الجنسية والنفسية التي يعانها أمثاله من الشبان . اننا بهده الصورة نواجه شخصية لا تكاد نعرف فيها على مصر التي دابت على الوجود حتى ثلاثينات قرنا هذا . لقد تم صيغ العقل المصري بصيغه الثقافة الغربية - بعد ان تم انقسام المجتمع الى طبقات كل مجتمع تسوده العلاقات الرأسمالية الحديثة - وبعد ان أصبح هنالك من المصريين من يرون - وفقا لمصالحهم وطاقاتهم - ان المقاومة تطاول على أقدار الانكليز المتحضرين المظالم العتاة ، كما أصبح من المصريين من يرون ان المقاومة الجديدة هي في الارتفاع بمستوى أخلاقنا وتعلمنا للنظام ، ومن يرون ان المقاومة تكون بالمفاوضات والحصول على مسا يمكن الحصول عليه ، ومن يرون ان المقاومة تكون بالمقاطعة الاقتصادية وبالظواهرات ، ومن يرونها بالاغتيالات الفردية أو الاعتصام بالدين ، ومن يرونها بالحرب الشاملة يشنها الشعب كله على جيش الاحتلال . وكان حمزة هو بطل مصر حينما عرفت ان العنف هو الطريق الوحيد الى الحرية فاستعادت بهذا جزء من أصالتها القديمة حينما بدأت تواجه الغرب الحديث في أواخر القرن الاسبق وأوائل القرن الماضي . ولكن حمزة لم يكن يستطيع ان يشير فضيئه بنفس مصطلحات السيد عمر مكرم ، ولا بمصطلحات عبد الله النديم ، فهذان كان مصدرهما الفكري الاساسي هو الجانب المضيء من تراث شعبهما الثقافي . أما حمزة فقد جاءت مصطلحاته من الجانب المضيء من ثقافة عريه ، الا انه لم يستطع ان يصوغ تلك المصطلحات بحيث تصبح ثقافته الثورية امتدادا للجانب الثوري من عقل امته . حقا لقد اتصفت ثقافة حمزة بصفة العلم الذي لا يعرف التفرقة بين الاوطان . ولكن هذا العلم ، علم الثورة الذي هو علم تغيير المجتمع ، لا يتعامل مع مواد جامدة ، وانما هو يتعامل مع تكوينات البشر الاجتماعية ومع ارواحهم ونفوسهم كافراد . لذلك كان على حمزة ان يشرح نفسه كثيرا ، ان يقول ما يعرفه كثيرا حتى يمكن للناس ان يدركوا كنه هذا المقاتل من أجل أشياء يتمنونها ويحبونها ، ولكنه الذي يتحدث بلغة بعيدة عن كل ما اعتادوا سماعه من كلمات . ولم يكن ثمة من سبيل أمام حمزة لكي يتحدث بلغة يفهمونها سوى ان يحاول معرفة لغتهم ومصدر تلك اللفة ، تراثهم الاجتماعي والثقافي والنضالي كله . لقد رأى حمزة انه مطالب على الدوام بتوضيح كل شيء ، أفكاره وتصرفاته ومواقفه وسلوكه وارتباطاته . وعرف انه يقدم نفسه باعتباره نموذجاً لذلك الوعي الجديد وللانسان الجديد - تعبيرا عن أوضاع اجتماعية جديدة - ليكتشفها الآخرون من خلاله ، وعرف ان عليه الا يتركهم يرفضونه مجرد نفورهم من خروجه على ما اعتادوا عليه ، وان عليه الا يتركهم ليقنوا به على سبيل تقليده ، هذا النوع الاعمى من

الاعتداء الذي لا يؤدي الى توليد المزيد من الثوار - وظيفة التوري الاساسية ، وانما كان عليه ان « يغيرهم » ، وهو يساعدهم على التغيير بكلماته المحملة بوعيه ، وتشجيعهم على اتخاذ مواقف جديدة . ولكن مثلما كان على حمزة ان يوضح نفسه للناس ، كان عليه أيضا ان يجعل الناس واضحين له بالدرجة نفسها . ولم يكن من الممكن ان يحصل حمزة على هذه الدرجة من الوضوح الا من خلال استقراره لتاريخ هؤلاء الناس وما يحتويه هذا التاريخ من معرفة وخبرة وحكمة ونضال ، لا ان يتوقف عند طيبة قلوبهم ، او مجرد افتناع الذين سم تزييفهم من بينهم بفكرة الشعب على القتال . كان لا بد لحمزة ، حتى يشر وعيه الذي لا شك فيه بانسانية قومه ، ان يكف عن برديد كلامه بمصطلحات لا يفهمها سوى أمثاله من قارئ الكتب ولاسي النظارات . كان عليه ان يخلق نظارته وهو يتكلم حتى يتبين وجه الناس الحقيقي ، من خلال ملامحهم واحساسه بها ، وليس من خلال ما استظهره ووعاه من كلمات عظيمة شديدة العلمية ، تماما مثلما اكتشف القيمة الحقيقية لوجود هؤلاء الناس ولزحامهم حينما سقطت النظارة فقادته غريزته السسى الزحام الذي كان لا بد ان تبعده نظارته عنه .

ولكن حمزة لم يكن ثوريا فحسب ، وانما كان عاشقا كذلك . اما نحن فلا يسعنا الا ان نتساءل عن جدارة هذه العاطفة بالاحترام ، تماما كما تسأل حمزة في ليلة مواجهته المؤلة والمعادية لنفسه بعد ان كاشف فوزية بحبه وبمسند ان رفضت فوزية حبه ذلك الرفض الخشن الغليظ . اليس من المنطقي ان نتساءل عن جدارة هذه العاطفة بالاحترام ، وهي العاطفة التي كان من الممكن ان تشغل ذهن حمزة ووجدانه وارادته عن التفكير في قضيته والعمل من أجلها . ألم يكن من الممكن ان يتنامى ذلك الاحساس الفردي بالعزلة الذي يهيبه أسبابا معقولة للنكوص والتخلي عن المسؤولية ، ذلك الاحساس الذي جملة يضيف الى تعليماته لفوزية .. « يعني كاتني في جزيرة معك » ، وما تبع تلك الاضافة من أفكار تسربت من لابعه الجاري الى منطقتة التفكير الواعي القريب من الإرادة الفاعلة .. « في جزيرة معها .. هي والطبيعة واللامسؤوليات ، كم يبدو هذا رائعا .. وهل ستسير حياته كلها هكذا معارك وكفاحا وتربصا وحذرا .. كم تبدو الراحة والمتع الصغيرة التي لا يزاؤها حلوة . كم يبدو بيت وزوجة وأولاد جميلا ؟ أحيانا يهفو الى قضاء يوم على شاطئ البحر في مصيف ، وأحيانا يود الذهاب الى الاوبرا .. أحيانا يريد ان يرى أوروبا » . كيف يمكن ان ينمو الحب جنباً الى جنب الخوف والتربص والرغبة في القتال ؟ كان حمزة يملك الكثير من التحفظات على فكرة الزواج والحب التي كان بدير يلح بها عليه ، كان مؤمنا بأنه ليست له حياة خاصة ، وانه قد وضع نفسه وحياته في خدمة الشعب ، وان مطامحه الخاصة هي بالضبط مطالب الشعب العامة ، وانه وان كان لا بد سيتزوج ، الا ان زواجه لا بد ان يخدم قضيته لا ان يكون على حسابها ، وانه وان كان لا بد سيكون له بيت ، ولكنه يجب ان يكون بيتا يهيبه له فرصة كبرى لخدمة الشعب . كذلك فقد استطاع حمزة ان يفتح نفسه « بحقه » في الحب ، وبضرورة ان يواجه فوزية بحبه من خلال تلك الفكرة النظرية التأميلية المحضة التي تقول ، او التي يقولها هو لنفسه ، بأنه رجل « يؤمن بالعلم ويؤمن بالحب .. ويؤمن ان الناس وجدوا ليحبوا ويحبوا ويسعدوا فليس عيبا ان يحب فوزية اذن .. » .

هكذا منح حمزة لنفسه « حق » ان يحسب وأن يحيا وأن يستشعر السعادة الفردية والخاصة ، من خلال عملياته العقلية السلي كثيرا ما تنجح الى التحليل والتأمل و « تفصيص » المسائل كما قالت فوزية . ولكن حمزة - حتى بتلك النزعة التأميلية - كان قد أراح جانباً الكثير من العواقب الاجتماعية التي تقف بين الانسان والطبيعة . انه وهو المقاتل من أجل بني جلدته من كل ما يحرمهم من ممارسة الحياة التي تكفل لهم بشرتهم حقهم فيها ، وهو الذي

يكتشف من خلال المعركة واتصاله المستمر والمتجدد بأنواع مختلفة من البشر ، يكتشف الينابيع الحقيقية لوجدان الانسان ، البساطة والصدق والركون الى الفهم المباشر للاشياء وللحالات وللناس وللأفكار ، وانتمه في العمل وفي المستقبل ، والارتباط التلقائي - النفسي والعضوي - بين نصفي البشريه - الرجل والمرء ، اندر والانى ، هذا الارتباط الذي يتخذ صفة الوضع الطبيعي والمعوي الذي تريده الطبيعة نفسها ويفرضه قانون الحياة ، أقول ان حمزه هذا ما كان بوسمه - حتى وان استخدم كل ما يعرفه من الافسوس النظرية عن ضرورة الزواج الذي صفته كذا وكذا ، والحب الذي به كيت وكيت من الصفات ، أقول أنه مهما استخدم من مثل تلك الافعال ، الا انه ما كان بوسمه أن يقف في وجه القانون الأسمى للطبيعة ، قانون امتزاج الذكر والانى ، أو في وجه القانون الأكثر سموا للطبيعة الانسانية ، قانون بحث كل من الرجل والمرء أحدهما عن الآخر ، عن شبيه لذاته ومكمل لها ومأمّن لمخاوفها وجسيد لرغباتها . وكانت فوزية بالنسبة لحمزه - كما كان هو بالنسبة لها - ذلك الشبيه والمكمل والمأمّن والتجسيد . ان محاوله حمزه المستمرة من أجل أزاحة العقبات الاجتماعية من طريق الانسان ، والتخلص من الموانع التي فرضها التباين الطبقي أو التعليمي أو الجنسي بين البشر - أقول ان هذه المحاولة كانت تفرض عليه أن يزداد اقترابا من البساطة والصدق والفهم المباشر الواقعي للاشياء وللصلاطات وللناس وللأفكار ، وكانت تفرض عليه أن يتق بالعمل وبالاستقبال - ان لم تكن هذه الثقة هي ما ولدت نزوعه الى أزاحة تلك العقبات والموانع . ان هذا النزوع - وبعبارة أخرى هذه الثورية - هي ما تدفعه الى اكتساب المزيد من الثقة بالانسان والمزيد من فهمه .

الا ان حمزه - دا النزوع انسانيه التي لم تنقلب على قدرته على الفعل - كان يقف من الحب ، من العلاقة السوية بين الرجل والمرء - موقفا مليئا بالتحليل والتأمل والاستنتاج والرغبة في المناقشة . ان تحفظاته لم تكن في الحقيقة سوى الموانع العقلية التي وضعها بين قلبه وجسده وبين التكامل الانساني كرجل وذكر . كان حمزه من هذه الأزواج بعيدا عن الطبيعة أو عن الوضع الطبيعي الذي تفرضه الحياة نفسها ، بعيدا عن أن يكون التجسيد الصالح للثورة التي يطمح الى القيام بها . ولكنه في اللحظة التي بلغت ثورته فيها حد الانهيار ، حين اصبح مهينسا بحوض القتال الفعلي ، وللانتصار أو للموت .. حينما اصبح مستعدا للقيام بالعمل المباشر - من وجهة نظره - من أجل تصحيح الوضع الاجتماعي واعادة سيادة القانون الطبيعي بين البشر .. في هذه اللحظة أصبح حمزه أيضا نهبا للحب . كذلك فان نزعة حمزه التأملية وقدرته على التحليل ورغبته في البحث عن الاصول واكتشاف العلل وتيارات الاندفاع ، لم تكن نزوته تلك ورغبته مجرد نثره لغوية أو ضياعا لفظيا في غابات الكلمات المجردة ، وانما كانت تعبيرا أصيلا عن رغبة هذا المثقف العلمي الذي خرج من قلب فئة من المجتمع تتعامل مع العالم أساسا بأبديها ، وتنبع أفكارها مباشرة من خلال العمل - من خلال احتكاك الانسان بالطبيعة والآلة والمجتمع - أقول ان تحليلاته وتاملاته انما كانت تعبيرا عن رغبته الحقيقية في الوصول الى مبرر لفعل « الحب » ، فالحب عند حمزه - علاوة على كونه تلك العلاقة الشخصية والعمل الفردي بصورة كاملة - لم يكن مجرد عاطفة أو شعور وجداني يحمله بمفرده للمرأة التي يحبها ، وانما كان أساسا شعورا متبادلا بينه وبين هذه المرأة . انه لا يستطيع أن يسميه حبا قبل أن تبادلها المرأة شعوره . ثم لا بد بعد ذلك من ممارسة هذا الحب ، لا بد من فعله . وهذا هو ما علمته فوزية اياه ، الحب لا يناقش ، الحب يؤخذ . ان المضمون العملي لتلك الكلمة لا يمكن أن يتحقق الا بين الاثنين معا ومشاركتهما سويا ، لا في عملية الحب وحدها ، وانما في عملية الحياة جميعا : في الكفاح كما في العمل ، في الهرب كما في الامداد للثورة ، في التفكير كما في تطبيق الأفكار ، في ممارسة

الحب كما في تربية الاطفال ، ولذلك فان حمزه لم يكن مجرد نموذج جديد من الثوار ، وانما كان نوعا جديدا من العشاق أيضا ، وكان عشقه نوعا جديدا من الحب . ومثلما كان عليه - لكي تنجح ثورته - أن يعود بوعيه العلمي الجديد الى يانبع التكوين النفسي والترات النصالي الحقيقي الذي أبدعه شبيهه وأدخره ، فقد كان عليه لكي يتجح حبه أن يعود رأسا وفي صدق كامل الى الاحتياجات العميقة والملحة لروح الانسان ولجسده ، العودة الى المصدر البسيط لسلوك الانسان ، احتياجه وتوافق رغبته مع رغبة الآخر . وبينما لم يستطع حمزه أن يعثر على بداية الطريق الصحيح لنجاح ثورته طوال الرواية الا حين سقطت نظارته وقادته قدماءه وغريزته الى زحام الناس وكف المؤلف من الكتابة ، فقد كانت فوزية - الطرف الآخر في عملية الحب - فادرة على ان تفود خطى حمزه نحو البداية الصحيحة لممارسة حبهما في بداية علاقتهما المبكرة . وهكذا لم يكن حب حمزه هروبا من واجبه ، أو محاولة غير واعية للتشاغل عن مهمته الاولى الوحيدة في الحياة ، مهمة الثورة واعادة الاوضاع السوية والطبيعية بين البشر ، وانما كان الحب استكمالا لانسانية حمزه ، وتصحيحا لوضعه هو الشخصي ، من أجل أن يكون أكثر صلاحية للثورة .

ان نزوع حمزه منذ البداية نحو تصحيح علاقة الانسان بالطبيعة ، وأزاحة العقبات الاجتماعية المشوهة بينهما ، وهو الذي نما في مكان بعيد الى حد كبير عن تقديرات المدينة الاجتماعية ، أقول ان هذا النزوع ، انما يتبدى واضحا أكثر ما يكون الوضوح في تلك اللحظات التي تتداخل فيها أحاسيسه الاجتماعية مع ذلك « الجزء » اليسير من « الطبيعة » الذي تبقى عليه المدينة بشوارعها المسفلتة وأبنيتها الحجرية ووضوئها الصناعية المرهقة . فالشمس ليست هي ذلك النجم المطلق السابح في الفضاء ، مشرقا وضيئا أو يوشك أن يفيق ، والبرد ليس مجرد الاحساس بانعدام الدفء أو ارتعاش الاوصال أو انخفاض درجة الحرارة ، الشمس والبرد وبقية عناصر الطبيعة التي تتمكن من النفاذ اليه من خلال شوارع المدينة تكتسب عند حمزه معنى انساني متعلقا بوضعه هو الانساني الفردي ، أو باحساسه أو فكره الجماعيين .. « وأتاح له الصباح أن يجعل عقله أكثر سيطرة على نفسه ، خاصة وان الصباح كسان باردا برودة ترد الصواب ، برودة تجعل الانسان يرى الاشياء في وضوح ، بل وتفقد أشياء كثيرة ما يحيطها من بريق ويبنو على صورة اقرب ما تكون الى الواقع الذي مسح عنه الخيال » .. « كانت الدنيا لا تزال صباحا ، والشمس توزع صفرتها على الناس والاشياء بسخاء . وتالم حمزه لمنظر الناس وكان قد مضت عليه شهوة وهو في سرداب تحت الارض خرج منه يوما . كانت فيهم ملامح أهل القاهرة الذين يعرفهم ما في ذلك شك ، ولكنهم كانوا غير الناس الذين راهم لشهور طويلة قبل الحريق .. » .

ها هنا نرى حمزه والطبيعة والناس ، معا . ان الانهيار الذي يعاينه حمزه أو يشاهده ، انهيار الامال والطموح والتوئب ، بعد اذ خيل اليه انه فقد حبه ، أو بعد حريق ٢٦ يناير وضرب موجة المد الثوري في معركة ألقال على يد الاستعمار والملك ، هذا الانهيار انما يعكس في نظر حمزه على الطبيعة والناس في وقت واحد . انه لا يستطيع أن يستشعر جمال الصبح دون أن يرتبط البرد في تفكيره بضرورة التيقظ والانتباه والمقاومة ، ولا يستطيع أن يستشعر روعة اشراق الشمس بينما هو يعلم كم من الامال العظيمة قد تحطمت في صدور هؤلاء الناس الحزوين المصطبقة وجوههم بالصفرة ، صفرة الشمس التي تولد - في نظر حمزه - ميتة أو حاملة لون الموت وجراثيمه . انهم قد يزدحمون نفس الازدحام ويسرعون الى عملهم نفس الاسراع ، ولكنه زحام صامت لا يتم عن حياة وان تم عن كثرة مبعثرة متزهلة مشلولة ، وهي سرعة مفزعة متوترة خائفة ، سرعة « اشياء » تصطم ببعضها فتتحرك بدافع من الغريزة الهوجاء وليس بدافع من الوعي الهادف . لقد تحولوا في نظر حمزه الى شخوص مصطنعة ، تحمل لون الشمس الصفراء الميتة . انه يعكس احساسه البشري ،

وضعه الإنساني الخاص والذاتي على موضوعية الطبيعة وموضوعية الآخرين ، لكي تستحيل في داخله الى عنصر من عناصر وجوده ومسببات فعله ، متفاعلة معه في مشكلاته القائمة وفي الحل السذي قد يصل اليه .

هكذا كان حمزة - الذي أبدعه يوسف ادريس - تعبيراً حقيقياً عن ذلك الجيل من الثوار الذين عرفوا ان الثورة هي علم تغيير المجتمع ، وان الحرية ليست مجرد الاستقلال السياسي وطرد المستعمر ، وان الحرية نفسها - بكل جوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية - لا يمكن الحصول عليها في صورتها النفسية الاصلية ، ما لم يشق الشعب اليها طريقه بالعنف المنظم في مواجهة عنف المحتل المنظم كذلك . ولكن حمزة أيضاً لم يكن مجرد تعبير عن الجوانب الطيبة من ذلك الجيل . لقد التزم يوسف ادريس الحقيقة بكاملها دون أن يحاول اكتشافها ، فحمل حمزة نفس ما عاناه جيله من جوانب القصور ، دون أن تكون ثمة محاولة من جانب المؤلف لتقييم ذلك القصور أو اتخاذ موقف منه ، فجاء قصور حمزة تقريراً للواقع وليس إعادة للكشف عن معناه . لقد وعى حمزة - كما وعى جيله - القوانين العلمية لتغيير المجتمع البشري وعياً عميقاً ، ولكن حمزة وجيله لم يكونوا علميين الى درجة كافية بحيث تصبح هذه القوانين - كما ينبغي أن تكون - أداة في يد الثوار وليست موجهة لهم . اسم يعرف حمزة كيف يمزج هذه القوانين بخبرة شعبه وحكمته وتراثه النضالي ، وكيف يصوغها بمصطلحات اللغة التي خلقها الشعب لنفسه من خلال حياته ومعاركه نفسها ، بحيث تتخذ هذه القوانين صفة البديهية التي تملئها حركة الواقع ، لا أن تتحول الى مجرد « مدرسة » من مدارس الفكر السياسي والاجتماعي .

ما هو حكمنا على حمزة اذن ؟ هذا العاشق والمقاتل الثوري ؟ مفارم هو كما يراه صديقه الثري السمين بدير ، أم بطل كما يراه اسماعيل أبو دومة وفوزية ؟

انه بوعيه العلمي بالثورة وبيمانه بقدرة الناس على التحكم في مصائرهم وتغيير شكل وجودهم الاجتماعي ، ورغبته الاصلية في تحقيق تلاحمه العضوي بالناس وبمصالحهم الانسانية البسيطة ، أي ببساطته بقدرته على تجاوز فرديته وتحويل سخطه الشخصي الى طاقة واعية مفكرة يضعها في خدمة قومه ، لا يمكن أن يكون مفارماً . انه لا يسعى الى اثبات قدرته أو تفوقه ، ولا يسعى الى الحصول على لذة الاكتشاف أو مواجهة الخطر ، لا يدور في سلوكه أو تفكيره حول محور ذاتي مطلق المدار . انه لا ينتهي أبداً الى حيث ابتداء ، كان قادراً على الاخذ بمثل قدرته أو تفوقه ، ولا يسعى الى الحصول على لذة الاكتشاف أو مواجهة الخطر ، لا يدور في سلوكه أو تفكيره حول محور ذاتي مطلق المدار . انه لا ينتهي أبداً الى حيث ابتداء ، طالما كان قادراً على الاخذ بمثل قدرته على العطاء ، وطالما كان قادراً على أن يتعلم بمثل رغبته في أن يعلم الآخرين ، وطالما كان قادراً على الحب في صدق يمانل صدق احساسه بالخوف أو بالندم .

ولكنه أيضاً لا يمكن أن يكون بطلاً . فانه وقد عجز عن النفاذ الى عقل الناس ووجدانهم ، طالما ظل يعتقد ان عليه أن يخاطبهم بالفكر الصحيح فحسب ، لا من خلال صياغة هذا الفكر بلغة الناس أنفسهم ، وطالما اقتصر دوره على أن يكون مجرد « انعكاس لقمة الحركة الاجتماعية » ، وليس « تجسيداً » لرأس رمحها الفكر والمقاتل ، طالما ظل تعبيراً ضرورياً عن تطور المجتمع وعجز عن أن يكون قوة فاعلة في هذا التطور حينما انفصل بلغته عن لغة الناس ، وحينما لم يتجه الى حيث ينبغي أن يكون ، حيث يتجمع الناس المستعدون للقتال والثورة ، الذين لا يوجدون في الشفق الفاخرة حيث كان مهربه الاول ، ولا في الجبانة حيث كان مهربه الاخير ، أقول ان حمزة بهذا الشكل لا يستطيع أن يكون بطلاً . ليس البطل هو طفيلي المناضل

كما يقول سارتر ، وانما هو التجسيد الفكري في فرد أو في مجموعة افراد لحركة اجتماعية كاملة ، وهو القوة الفكرية الفاعلة في ذروة هذه الحركة ، وهو اكثر المناضلين قدرة على الارتباط بمصالح الناس وتجمعاتهم ولغتهم . وبهذه المعاني لم يستطع حمزة أن يكون بطلاً . لقد سقطت نظارته عفوا فتوقف عقله المدرب الواعي عن العمل وقادته قدماه وغريزته الى الزحام - الى حيث يوجد من يقاتل من أجلهم ومن هم على استعداد للقتال الى جانبه . وحينما اتسبه الى سقوط النظارة ، استرد عقله الواعي كفاءته على العمل ، فكان ان عاد الى الجبانة ، حيث ينتظره زملاؤه الثلاثة وحببته . ويخيل الي انه كان ينوي أن يستمر في « الكفاح » بنفس الطريقة معزولاً مع جماعته الصغيرة ، بعيداً عن زحام الناس . ومع ذلك فهو ما يزال يتعلم وما يزال قابلاً لاكتساب خبرات جديدة ، فطالما كان هدفه هو الثورة وليس المفارمة ، وطالما كان ايمانه النظري ان « الشعب » هو من يجب أن يقوم بالثورة وليس مجموعة معزولة من « المختارين » ، وطالما كان يسعى أن يسمع الشعب صوته وان ينضم اليه بجسده وليس بمجرد أفكاره أو نياته الطيبة ، فانه سيظل في نظرنا مناضلاً فحسب .

لقد أبدع يوسف ادريس « حمزة » ليكون تجسيدا لثوار جيل ما بعد الحرب العالمية الاخيرة ، فكان كذلك بالفعل دون أن يحمل أثراً من طموح هؤلاء الثوار الى تجاوز حقيقتهم وما كان بإمكانهم فقط أن يكونوه . لم يكن مفارماً ، وعجز عن أن يكون بطلاً ، واكتفى لنفسه بشرف النضال ، وكان حتى يتصر نضاله على استعداد لان يموت ، فما كان يتصور ان بقاءه على قيد الحياة شرط لهذا الانتصار ، وان كان على استعداد لان يتقبل كل ما تمنحه له حياته ونضاله من سعادة وحب .

سامي خشبة

القاهرة

شعر

من منشورات دار الاداب

ق . ل

- | | | |
|-----|---------------------|------------------------------|
| ٢٥٠ | للشاعر القروي | الإعاصير |
| ٢٠٠ | لفدوى طوقان | وجدتها |
| ٢٠٠ | » » | وحدى مع الايام |
| ٢٥٠ | » » | اعطنا حبا |
| ٢٠٠ | لعبد الباسط الصوفي | ايبات ريفية |
| ٢٠٠ | لفواز عيد | في شمسي دوار |
| ٢٠٠ | لهلال ناجي | الفجر آت يا عراق |
| ٢٠٠ | لعنان الراوي | المشائق والسلام |
| ٢٠٠ | لخالد الشواف | حناء وغناء |
| ٢٠٠ | لمحمد الفيتوري | عاشق من افريقيا |
| ٢٥٠ | لصلاح عبد الصبور | احلام الفارس القديم |
| ٢٥٠ | لصلاح عبد الصبور | اقول لكم |
| ٢٠٠ | لمعين بسيسو | فلسطين في القلب |
| ٢٠٠ | لحسن النجمي | كلمات فلسطينية |
| ٢٠٠ | للدكتور خليل حاوي | بيادر الجوع |
| ٢٥٠ | لعبد الوهاب البياتي | سفر الفقر والثورة |
| ٢٥٠ | لصلاح عبد الصبور | الناس في بلادي (ط . جديدة) |
| ٢٠٠ | لابراهيم محمد نجا | الحياة الحب |